ملخص كتاب: المرقاة

تأليف: سليمان العبودي

جنى المعرفة:

مبادرة هادفة لإثراء المحتوى الرقمي بمنتج ثقافي قيّم، يسهم بزيادة مستوى الوعي والمعرفة عن طريق تقديم الكتب الثقافية من خلال محتوى مرئي ومسموع لكي تكون عناقيد المعرفة بين يديك.



مقدمة

تأملتُ كثيرا في مسارات التكوين العلمي وآلياته وأدواته؛ متمعناً في الدلائل الشرعية ومستلهما من الإضاءات المسلكية مرقاةً يعرج بها طالب العلم من العوالق. فالكتاب وريث تأملات حاولتُ من خلالها عقد فصول مدللة بالشواهد على مشكلات وتساؤلات.

التكوين

المعرفة الشاردة

يتساءل صاحبي: كيف يستطيع العالِمُ أن يستذكر من بين مقروءاته الهائلة فائدةً لطيفةً من بين السطور، وبالذات حينما تكون هذه الفائدة من كتابٍ ليس من الكتب الأصول بالنسبة للعالم ونحو ذلك؟ أو يقول: أقرأ كثيرا ولا أستفيد، فما الحل؟!، أو يقول: هذه الفائدة التي سمعتها كثيرا لكنها ترزح في معتقلات النسيان عند تطلّبها، ماذا أفعل؟!!

وهذه التساؤلات عادة على شقين:

١- اضمحلال المعرفة وشرودها بعد وجودها (تطلّب المفقود).

٢- طرائق استحضار المعارف الموجودة الكامنة (استثمار الموجود).

- **فأما الشق الأول، فأقول فيه:**

إن بذور العلم عزيزة لا تنبت في غير أرضها، وأراضي المعرفة ليست مسوَّرة ولكن ثمنها مؤخر، وحين تمتلك الأرضية العلمية لعلم ما، تستطيع أن تبني فوقها الأبراج العاجية من المعارف وشواهق المعلومات دونما عناء، فالمعارف بطبيعتها سريعة التناسل كثيرة التوالد ولكنها لا تتخلق خارج جدار الرحم!

إن الأرضية العلمية التي أعنيها هي أصول المسائل في باب ما من أبواب العلم، وهي تلك التي ينفق طالب العلم لأجلها وجه النهار وآخره، ثم إذا منّ الله عليه باستقرارها في صدره وثباتها في عقله أصبحت مغناطيساً جاذباً لمعادن المعلومات العابرة، لا يكاد ينسى منها شيئا فالعلم كلما استقرت أصوله حول بابٍ ما؛ لانت فروعه.

ولديّ قناعة تامة أن الفارق بين الناس في هذا الباب ليس متعلقا – دائما – بالفوارق الذهنية والقدرات العقلية، وقد لفتنا ابن عبد البر – رحمه الله – إلى إشارة جميلة في ضبط الأصول التي تستذكر بها الفروع، فقال: "وخير العلوم ما ضُبط أصله واستُذكر فرعه، وقاد إلى الله تعالى ودلّ على ما يرضاه". فالعقل بطبعه لا يقيم الأصل إلا بمكابدة وعناء ثم إذا استقر الأصل؛ أقام عليه بنيان الفروع وربط بين المعلومات وضم النظير إلى النظير وقسّم وفرز ورتّب بطريقة تلقائية مدهشة لمن تأمل!

كان لديّ بعض إيمان بأن العلم كلما كثُر؛ سهل حفظه، وقادت أصول المسائل رقاب أخواتها داخل الذهن، وأن المتعلم كلما ضبط وعانى قدرًا واسعًا من المسائل وأتقن كثيرا من الأبواب أصبح يحفظ في ذلك الباب من مرة ومرتين .. ونظرة ونظرتين! ثم وجدت إشارات لطيفة لعدد من العلماء في هذا الباب؛ كالجاحظ، والزرنوجي، وغيرهما.

- **قد يرد السؤال: وكيف يضبط طالب العلم أصلا؟!**

والوسائل كثيرة، إلا أن من أفضلها: **وسيلة "التلخيص والاختصار"**، وقد عاينا الإمام الذهبي وكيف أن لخص كثيرا من الكتب أيام طلبه، ثم لم تلبث أن صارت ولائد مؤلفاته، وكذلك ابن منظور، وغيرهما.

ومن مقاصد الاختصار عند العلماء حذف الحشو والزائد والمكرر والاقتصار على ما يراه المختصر أصول العلم ليتسنى ضبطها ويسهل الإحاطة بها، والكتاب الذي تلخصه يعادل قراءتك له ثلاث مرات بل أزيد، لأن الاختصار يأتي لاحقا بعد القراءة الأولى الفاحصة، ثم إذا انتهى الطالب من التلخيص أعاد النظر فيه مرة ومرتين، وهذه النظرة تجمع أصول مسائل الملخص بإذن الله في القلب، فبعد هذا يصبح للطالب أرضية علمية وتذوق خاص للباب الذي لخّصه وتكون له فيه ملكة قابلة للتنامي.

المعرفة الكامنة

ظلّ التصور القديم للعالِم بأنه صاحب الهدر المعلوماتي وأن أعلم أهل الأرض هم أكثرهم حفظا وأقدرهم على سرد المقطوعات الطويلة وهذّها من بدايتها إلى نهايتها شعرا ونثرا، ولا شك أن الحفظ من أهم أركان العلم وأعظم وسائله، إلا أن المفارقة تظهر حينما ترى اثنين يشتركان في الحفظ ويستويان في

مقداره لكنهما يفترقان افتراقا هائلا في استثماره وتوظيفه عند الحاجة إليه. وبالنظر إلى كتب التراجم والطبقات نجد العلماء يردفون الحديث عن المترجَم لهم أحيانا بالحديث عن (ملكته في استحضار المعارف الكامنة في صدره، ومدى استثماره المحفوظ حينما يحتاجه)؛ فيميزون الحافظ من المستحضر.

وهناك وهم شائع أيضا لدى بعض الناس: بجعلهم الاستحضار فرعا عن الفهم وملازما له، ويجعلون ثمة تقابلا بين الحفاظ من جهة، والفقهاء المستحضرين من جهة أخرى: وهذا ليس صحيحا بهذا الإطلاق، فلا شك أن عمق الفهم معين على الاستحضار، لكنه ليس ملازما له بالضرورة؛ لأن الاستنباط قدر زائد على الاستحضار، والاستنباط هو استحضار مركّب من استذكار الدليل والدلالة، وإن كان يراعى أن مخرجات العلم لا يمكن أن تكون ثمرة خصلة واحدة من خصاله: كالاستحضار أو الحفظ أو الفهم أو الاستنباط، لكن تغلب على بعض المواقف خصلة على أخرى.

- **وتتلخص الحلول المطروحة لذلك في جانبين:**

١– مساءلة المادة المدخلة وتقليبها على وجوه مختلفة:

المعلومات التي يختزنها طالب العلم أيام الطلب وأزمنة التحصيل هي مواد مصمتة (خام)، وهي على سبيل المثال نصوص قرآنية أو أحاديث كتاب أحكام أو قصائد مطولة دلفت إلى الذهن قطعة واحدة، ودخولها بهذه الصورة يعرقل استثمارها عند الحاجة إليها ويجعلها غير قابلة للتجزئة والفرز والتفريق واستخراج النص المطلوب لحظة الاحتياج إليه ما لم تخضع لتقنية المساءلة الدائمة، وتتخذ هذه المساءلة أشكالا متعددة، إما كثرة التأمل الذاتي للمعارف المختزنة في تلافيف العقل ومحاولة كشف النظائر وبيان الفروق، والقراءة بلا تأمل ولا تفكر ولا إعمال للذهن هي مجرد إرهاق للعينين والرقبة، وإما المباحثة للأقران ومدارستهم.

والمحصّل من تقنية المساءلة شحذ الذهن ونفض الغبار الذي يسرع في التراكم فوق رفوف المعارف إن ظلت مستكنة حبيسة الفؤاد.

ثمة تحفز عقلي يجده طالب العلم زمن المدارسة العلمية، وهناك توثب روحي لحظة التناظر بين الأقران بالمعارف، وهذه الحالة الانفعالية للنفس هي وحدها الملائمة لتمهيد طريق معبّد تنثال منه المعارف من

الذهن تباعا عند الحاجة إليها لاحقا، بخلاف حال ذلك المنزوي حينما يقرأ ويحفظ باسترخاء تام في زاوية مكتبته، فإنه كثيرا ما تبقى أرض معارفه بِكرا لم تشقها معاول البحث والمساءلة.

وسبب الإفادة من المباحثات في تنمية ملكة الاستحضار هو أن طالب العلم يظل ساعة النقاش مسخِّرا جميع طاقته، وموظِّفا كامل حواسه لاستذكار كل ما لديه قبل المباحثة، ولضبط كل ما يقوله مُناظره في أثنائها، ولتدارك كل ما فاته بعدها، فهذا الجو المتحفز هو أكثر الأجواء قابلية لرفع مستوى الانتفاع بالمعارف المدّخرة، وهذا متصل بما تذكره الخبرة الحديثة في مجال علم الذاكرة في ما يسمونه: (الموقف الانفعالي) بأن الأحداث والخبرات المشحونة انفعاليا (بانفعالات سلبية أو إيجابية) يسهل تذكرها أكثر من الخبرات التي لم ترافقها مثل هذه الانفعالات، وهو ما سمّاه بعض الباحثين في هذا المجال بـ(الذاكرة الانفعالية).

إن المراد بمساءلة المادة المدخلة هو تحويل المادة المصمتة إلى إجابات مجزّأة قابلة للاستخراج عند الحاجة، فليست مقتصرة على وسيلتي التأمل والمناظرة، وإنما كل ما أفاد الطالب كثرة حرث المادة وبعثها من مرقدها؛ فقطوف الاستحضار تزداد نضجا ودنوًّا.

وأفضل ما يعين على ذلك، هو: **تقليب المادة العلمية في الذهن على وجوه مختلفة، والتنويع في الإدخال على القلب لتسهيل اختلاس الشاهد من خبايا الذهن لحظة احتياجه**، ولهذا التقليب طرائق لا تحصى كثرة:

– فمثلا لو تبارى مجموعة من الطلبة الحفاظ على استخراج آيات الجنة من ربع القرآن الأخير، أو آيات الملائكة في القرآن، أو تسابق ثلة من حفاظ الزاد على سرد مسائل بابٍ ما لا على ترتيب المتن وإنما على ترتيب أدلة المسائل في الظهور، أو عمد حافظ المعلقات إلى استخراج أبيات متعلقة ببعض المواضيع نحو أبيات الإيمان أو الشك بالبعث لدى شعراء المعلقات، لكان ذلك أثره بيّن في سرعة استحضار الشواهد، وسيلحظ الحافظ ابتداءً نوعا من التعسر في أثناء استخراج الشواهد كأنما هو يمشي في طريق مستوعر مليء بالحجارة، ثم مع مضي الوقت والاصطبار يتمرس الذهن على نزف المعارف الكامنة.

– ومن طرائق تقليب المادة العلمية على وجوه مختلفة حفظ الشواهد ضمن سياقاتها التداولية؛ فمن الملاحظ أن حفظ أحاديث الأحكام من سياقاتها الفقهية يعين على ذكر الصورة والحكم والدليل معا، وكذا حفظ الشاهد اللغوي ضمن سياقه المرتبط بالشاهد والمناسبة يعين على تذكر ذلك كله، وهذا أيضا ما تذكره الخبرة الحديثة وفق ما يسمى عندهم (مبدأ الاقتران والاشتراط)؛ فالسياق الذي يجري فيه تعلم مادة ما يساعد في استحضارها واسترجاعها كاملة.

– ومن طرائق تقليب المادة العلمية على وجوه مختلفة التي كان يفعلها بعض العلماء: إيراد آية ثم تحفيز أذهان الطلبة واستفزازها لذكر كل ما يتعلق بها نحوا أو فقها أو تفسيرا، ولا تصلح هذه الطريقة النافعة في تنمية ملكة الاستحضار إلا بإزاء شيخ متمكن.

٢– تفعيل النظرة الكلية:

المعارف في كافة الحقول غزيرة التفاصيل كثيرة التشظي، لكن من نعم الله على الطالبين أن جعل لكل حقل معرفي قواعد جامعة تطوق أطرافه وتلمّ شعثه، ولولا ذلك ما استطاع عالمٌ أن يصل إلى مبتغاه ويحصِّل مطلوبه. فعلى المتعلم أن يُعنى بحفظ وضبط القواعد الكلية – كما نص على ذلك العلماء –، والحرص على النظر الكلي للمعارف أثناء تحصيلها والتفاعل معها.

الارتخاء المعرفي

ثمة طرائق قددا في مدارسة العلوم وتشييد أبنية المعارف في الذهن، فكما أن الكتاب الواحد تتخطفه أيادٍ متعددة؛ أحدهم يقرأه ليستفيد والثاني ليستمتع والثالث ليباهي به والرابع ليكتب رداً، فكذلك يصنع قاصدوا الفنون وطالبوا المعارف، فتجدهم يتفاضلون تفاضلا هائلا ولا سيما في المخرجات النهائية، فهم وإن وردوا نبعا واحدا إلا أن بعضهم يفضل بعضا في الأُكل. والإشارة إلى اتحاد النبع مع اختلاف الأُكل ثابت في الوحي!

أعني: أنه ثمة قراءة تعمد إلى تحسس زوايا الفن ووضع الكف على صدر العلم واستشعار نبضات قلبه ومرتكز مسائله فهي تعرف المقدمات مع النتائج، وتخرّج الفروع على الأصول، وتتغيا بلوغ تحصيل

الملكة لا مجرد ضبط الأقوال، وأخرى تمر مرورا عابرا على جميع مسائل الفن وتتحفظها لا تكاد تخرم منها حرفا، لكنها بمنأى عن ملامسة الجذور وترسية القواعد، والثالثة — وهي أساس حديثنا هنا — هي قراءة المُلح وجمع اللطائف ومراكمة المعلومات الجانبية، إنها ليست صعودا على بنيان العلم الأصيل والدخول إليه من أبوابه المشرعة وطرقه المعبّدة، وإنما هي التقاط لبناتٍ متساقطة من أصوله ومراكمتها حوله ثم التطاول بالأعناق بها على البنيان الأصيل!

ولنا أن نقول: إن إدمان الملح يُعد سببا من أسباب الارتخاء المعرفي، فثمة ظاهرة متنامية تلفت الانتباه وتُبرز نفسها يوما بعد يوم بوسائل شتى، وهي تضخُّ حُقنا من الاسترخاء في وريد الحركة العلمية، وهي انصراف كثير من طلاب العلم الأصيل عن صُلب معارفهم وأساس بنائهم على حساب مسائل مفضولة، فكلما حلّت مناسبة علمية كمعرض الكتاب طفح إلى السطح سدنة الارتخاء، وأعمدة الملح، وأقطاب المادة الخفيفة، وكم تَنْفُقُ بسببهم بضاعة الروايات والتراجم والسير الذاتية ومُلح العلم ولطائفه، ونحن في زمن أمست فيه شبكات التواصل تُكيِّف طرائق التلقي والتأصيل، وتفرض ذوقها الخاص بها، فصار كثير من روّادها يجد عقله تشرّب طرائق معينة في التحصيل وتثمين الفائدة والحكم عليها، فحين يقرأ كتابا ما تستهويه فوائد معينة، إما لغرابتها — لأنّ الإغراب يستهوي كثيرا من المتابعين — رغم كون كثير من أصول العلم ليست من غرائب المعارف بالمفهوم الشائع، وكان بعض السلف يفر من هذه الغرائب في الأحاديث ويجعلونها علامة إعلال، وإما لكونها قصيرة قابلة للاقتباس فيُتاح له أن ينشرها في حسابه، وإما لكونها محل جدل ساخن ويضرب الذكر صفحا عن تلك التي لا يتاح له نشرها إما لطولها أو لكونها لم تثر حولها إشكاليات، فصار ثمة ذوق خاص في اقتناص الفوائد تفرضه هذه الشبكات، وتحتمه على مدمني النظر إليها أثناء قراءتهم للكتب وتلقيهم للمعارف، فيصبح طالب العلم الخاضع لمزاج هذا الذوق المرحلي جاهلا بأصول من المسائل العلمية، ويغدو في بنائه المعرفي في فجوات بينة، وهي تلك المسائل التي لم تصبح بعدُ تحت الطلب في شبكات التواصل!

السجال

سمسرة المدافعين

ظللت موقناً أن بسط الشبهات على حصير القلب سيترك أثره – إلا ما شاء الله – حتى في قلوب أولئك الذين يتوهّمون أنهم أبعد الناس عن الانفعال والتأثر بها، وهم الذين يتناولون الشبهات لغرض الرد على أصحابها ودفع صائل البغي على حمى الشريعة، ولستُ أعني أمثلةً تتداعى إلى خيال القارئ وربما انثالت ذاكرته المكتظة بأسماء أولئك الذين انزلقت أقدامهم فابتلعوا نتاج الخصم ولم يستطيعوا بعدُ إخراجه! لست أعني هؤلاء ابتداءً.

إنما قصدت أولئك الذين توهموا أنهم أخرجوه لكنه ظلّ راسباً في الأعماق يتحرك في نطاق اللاشعور، نعم .. لا ينتقلون لليمين إذا كان الحق في الشمال، ولكنه كثيرا ما يدفعهم إلى شمال اليمين أو إلى يمين الشمال! إنه حق مضمّخ برائحة تهيّب الباطل!

نعم! هذه التغييرات اليسيرة تنشأ غالباً عن صفاء نية وفق مكونات ثلاثة، أورثت أصحابها نتيجة حاسمة، وهي:

١– دخول معترك الدفاع عن الإسلام.

٢– اليقين بضلال الأطروحة المباينة مباينةً تامةً لحقائق القرآن.

٣– خنوع داخلي خفي للأطروحة المباينة.

والنتيجة الحاسمة التي ينتهي إليها كثير من فضلاء المدافعين عن حمى الشريعة، هو شيء من الصدود القلبي – خارج عن مدى الاستشعار – عن بعض المعاني القرآنية اللاحِبَة، وشيء من الإخلاد إلى مكان بين الضفّتين! فلا هم انتهوا إلى الانزلاق والتهاوي في وادي الباطل الذي أرادوا نقضه، ولا هم شرفوا بالصعود لقمم الحق السامقة! وقد عبّر ابن تيمية عن هذا المعنى فقال:

"واعلم أنه لما حرّف من حرّف.. كثيرا من معاني القرآن؛ صار آخرون من المؤمنين الذين علموا بطلان ما ابتدعوه ينهونهم عما ابتدعوه .. وضعُف أولئك المؤمنون عن تحقيق الإيمان بمعاني القرآن، إما في بواطنهم لما عارضوهم به من الشبهات، وإما في ظواهرهم لما قاموا به من المجادلات والمجالدات، وأخلد

الفريقان إلى الطريقة الأمية المتضمنة الإعراض عن معاني كثير من القرآن، وصار ممن يرى هذه الفتن والافتراق يصد قلبه عن تدبر القرآن وفهمه"اهـ.

نعم .. فالتشغيب والتشويش على بعض المعاني الشرعية واتخاذها سُخريا من قِبل خصوم الشريعة، وكذا تصادمها مع بعض الظروف السياسية المتقلبة؛ قادت بعض أهل العلم وحملة القرآن إلى شيء من الركون إلى تخفيض كمية الدلالة لمعاني الوحي العظيمة والإخلاد إلى الطريقة الأمية التي صوّرها ابن تيمية!

ويروي د. القرضاوي في مذكراته أنه التقى المفكر الإسلامي مالك بن نبي، وسأله: لمَ قرر في كتابه (الظاهرة القرآنية) أن فرعون لم يمت غرقا ولكنه نجا ببدنه؟! فقال مالك – عفا الله عنه – : "اخترت هذا الرأي لأنه يروق للمستشرق وهو أقرب إلى ذهنيتهم، فأردت أن أكسبهم إلى جانبنا بذلك!" اهـ. تلك هي العقدة الأبدية للمدافع السمسار الذي يستشعر أن شيئا من الحق جدير بالإخفاء طبقا لهوى المستهلك!

وكل هذه مساوئ تتعلق بإفحام الخصوم وسبل رد باطلهم، لكن – في نظري – أنها ليست هي الخسارة الكبرى من سلوك هذه الطرق المعوجة، وإنما الخسارة الكبرى هو ما تعلق بنا نحن وبيقيننا وإيماننا بكمال الرسالة الإلهية وتمامها، وما نتج عن الضغط الرهيب حال استحضار تشويش الخصم وتشغيبه من ضمور المعاني القرآنية الشريفة في القلب.

معارف المتجمهرين

تظل الثغرات العلمية مطمورة تحت ركام الأيام حتى إذا ما هبّت رياح حدث فكري استوجب نزاعاً انكشفت مواضع قصور كثيرة في العقول والمناهج، والسوءات الفكرية لا توجب غض البصر كالسوءات الجسدية وإنما توجب على الغيارى إمعان النظر وتكراره واحتساب ذلك عملا صالحا حفظا لأوقات طلاب العلم والهدى وصيانة لأذهانهم من الانزلاق في مغارات مظلمة تدكُّ صرح بنائهم العلمي الآخذ لتوِّه في الاكتمال؛ فسوءة الفكر إنما توارى بالتأمل والتمعن في الموضع المنكشف كي لا ترمّ الجروح على فساد ولا ينبت المرعى على دِمَن الثرى، وطالب الحق الذي يبني تصوراته ابتداءً على أنقاض الأطروحات

المتصادمة إنما يبني بناء مشوّهاً مهدداً بالانهيار. **وحينما يُخصف ثوب التصورات الأولية من قماش تجاذبته الأيدي فلا تسل عن الخروق في وسطه وعلى أطرافه!**

من المعلوم أن البعض يحتفي بالسؤالات والاستشكالات على الحق بحثا عن اليقين، لكن هذا المسلك محفوف بالمخاطرة، وهو غالبا ناشئ عن خطإٍ في فهم اليقين الشرعي الذي هو (واردات ترد على النفوس تعجز النفوس عن ردها)، فهو يُحصَّل من تظاهر الأدلة وتعاضد الحجج لا من ملاحقة المعارضات الخارجية ونقضها، فالحق يُعرف ابتداءً بكثرة أدلته اليقينية وأهل السنة يؤسسون مذهبهم على مجموع الأدلة الشرعية التي يتفاوت المؤمنون تفاوتا هائلا في تحصيل آحادها من جهة وفي تحصيل حقائقها في القلوب من جهة أخرى، وكلّ من حصَّل منها قدرا عاليا فرح قلبه وطابت نفسه، كما يقول الشافعي: "الأخبار كلما تواترت وتظاهرت كان أثبت للحجة وأطيب لنفس السامع"اهـ.

هذه هي المرحلة الأولى، ثم ينتقلون للإجابة عن الإشكالات الطارئة، وربما أجاب العالم عن بضع إشكالات ولم يعرف وجه الجواب في أخرى، وعرفها غيره من أهل العلم، لكن هذا لا يجعله يبرح الحق قيد أنملة لأنه عرف الحق بالأدلة اليقينية ابتداءً، ولأن الإشكالات بحر متلاطم كثرة، فلو كان سيتتبع خيوط الإشكالات المعقدة ليجيب عنها كلها لربما التفّ خيطٌ على عنقه فلم يؤمن بشيء ألبتة لوجود تساؤلات ملقاة على قارعة كل طريق، وعدم إيمانه بشيء ألبتة سيبعث عليه إشكالات أخرى أشد مرارة وبؤسا، وهكذا حتى ينحدر تدريجيا في هوة الارتيابات السحيقة!

تقويم معارف المتجمهرين

يرد عليّ سؤال مُلحّ: ما الذي يجعل أطروحة ما ينقسم الناس إزاءها ما بين قابل مصفق وبين صامت متحفِّظ وبين رافض معترض؟!

لا شك أن من أسباب الرفض عند كثيرين: التوجس من الجديد أيا كان؛ لأن الفطام عن المألوف شديد والنفوس عن الغريب نافرة!، ومن أسبابه عند آخرين: كوامن نفسية متغلغلة إزاء القائل وهي تتحكم بموقفه من القول نفسه تبعاً.

كذلك من الأسباب: الفارق العلمي بين الناس، أعني: الذين يقولون بشيء من العلم، لكن علمهم قاصر عن سبر غور الأطروحات والآراء، وبالتالي لا يملك أحدهم محاكمتها محاكمة صحيحة، فعلمهم:

١-إما متصل بتلك المسألة معرض عما سواها.

٢-وإما متأخر عن فقه رُتَب الأقوال لتماثلها في الظاهر.

فقصور النظر إما في الطول وإما في العرض!

أما الأول: فهو من أسباب الخلاف الشائعة قديما وحديثا، فلا ريب أن الناظر في إشكال فرعْ بمعزل عن سائر الفروع سيجيء جوابه مختلفا عمن يثقل كاهله باستحضارها، ومن أمعن النظر في طرائق أهل العلم وجد أن فقههم يتمايز كلما كان شامل النظرة لا يعالج إشكالا في باب فتنشأ بتلك المعالجة إشكالات في أبواب، وكل من راعى هذا النظر كان أحرى أن يأتي جوابه في غاية النظم والاتساق.

أراد أبو المعالي الجويني مرة أن ينقض قولًا أصوليًا فلما انتهى من رده ذكر إشارة لطيفة تفسر اختياره هذا الجواب دون سواه رغم وجود أجوبة صالحة أخرى، لكن فسادها لا لذاتها وإنما لكونها تفسد مواضع أخرى، فقال: "من سلك غير هذه الطريقة؛ فقد شوّش على بقية أصول الأبواب"اهـ.، فمن عمق فقه العالم أن يستحضر أن الإشكال القائم ليس أحق بالنظر من الإشكال المستوفز للقيام!

وهذا الفقه الشمولي الممتد عرضا هو الذي يتجاوز معرفة القول إلى معرفة آثاره على الشريعة، وهو الذي يغيب أحيانا فيورث الخلاف، لكنه لم يغب عن ذهن الراسخين الذي وصفهم الشاطبي بأن شأنهم: "تصور الشريعة صورة واحدة"اهـ. وهذه العبارة الشاطبية تلخص الكلام كله!! هذا ما يتعلق بالجانب الأول من جانبي قصور النظر عن فقه المقالات.

وأما الثاني: فمن نظر في تصرفات المحققين من أهل العلم وجدهم لا يتوقفون عند سطح المقالات وإنما يتغلغلون لملامسة جذورها، ويكون الحكم متوجهاً للقول وظروف ولادته جميعا! وهكذا تلمح فقط العلماء المحققين لا يقف عند حروف المقالة البارزة، بل يسري إلى أوصالها ويتتبع ظروف ولادتها الغامضة!

وأكثر الغلط بين المنتسبين للعلم في تقويم الأطروحات الجديدة هو بسبب فقه يفتقر للعمق أو الشمول.

ويجملُ بمن أدرك زيف مقالة ما أو أطروحة بسبب استحضاره هذين الفقهين أو أحدهما أن يبين البيان الشرعي ويقلل حجم اللائمة التي يلقيها على قفا إخوانه ممن غاب عنهم أحد الفقهين أو كلاهما، فمن صنيع السلف أنهم كلما اشتبهت مقالة معينة أن يرفعوا بعض ما يترتب عليها من أحكام، فيستطيع أن يجمع بين الرفض التام لفكرة معينة وبين حفظ حق ومكانة من تقلّدها، فأشياء كثيرة تجعل الناس يقولون خلاف الحقيقة غير تعمد الغلط، ومن أدرك هذه الطبيعة البشرية؛ هان عليه بناء جدار سامق يفصل بين صلاحهم وآرائهم، ومن بنى هذا الجدار بإحكام استطاع أن يكون متزناً؛ فلا يظلم الأشخاص بذريعة هدم الباطل (كما قد يبغي بعض المستنة بزيادة على ما أمر الله به)، ولا يظلم الحقائق العلمية أيضا باسم الحفاظ على مكانة الرجال! وهذا أفدح من الأول؛ فالأمانة التي ترثها الأجيال القادمة منا هي الحقائق العلمية وليست جثامين حملتِها!!

طاقات مهدرة

لا تنحصر مشكلة المعارك الصغيرة في كونها تستنزف الإنسان وتهدر طاقته وتحرق زهرة ساعاته فقط! وإنما تمتد مشكلتها لشرعنة الخوض في هذه الجدليات التافهة، فمن طبيعة النفوس حينما تلج معركة صغيرة ويُخجلها كونها ترى قامتها المديدة منتصبة للذود عن حماها المقدّس أن تفر إلى نسج حيلة نفسية مألوفة؛ وهي نفخ بالون هذا العراك الصغير ببعض الأدلة الشرعية وتطويقه بشيء من العبارات المنطقية التي تربّت بها النفس على سؤال الجدوى لئلا تضطر للتجاوز عن حظيرة حظوظها وأهوائها، ومع توالي الولوج في هذه المعارك فإن لدى هذه النفس – حينما لا تجد لجاما وثيقا من صاحبها – قابليةً هائلة لأن تنصب داخلها صنما صغيرا توشك أن تعبده وتنحني إليه ثم تحفز الناس للطواف حوله سبعة أشواط كل يوم!

وأساس البلاء في كل هذه الأداوء النفسية هو في ما أسمّيه بـ (عقيدة انتظار الثواب واستبعاد العقاب من الناس) التي تسيطر على بعض النفوس فتحرمهم وقار الهدوء ولذة العيش وتمام الاتزان.

وأود أن ألفت الانتباه إلى أن مفهوم المعارك الصغيرة التي تُهدَر فيها الطاقات هو أوسع بكثير من معارك الحظوظ النفسية، فحتى في المسائل العلمية هناك معارك كبرى تستحق أن ينفق المرء لياليه لأجلها، وهناك نزاعات فرعية صغرى أمرها قريب.

البوارق

تسييج الحصن

نَبّه حذّاق السلوك على خطورة التطبيع مع الخطايا، وصعوبة الصبر عن بعض الذنوب إذا آلت عادةً مألوفة للعبد، وأمثال هذه الهزائم الموجعة يشهدها سلوك كل منا في حياته بصورة دائمة؛ وهناك أسباب موضوعية للهزيمة تتعلق بوهن الإرادة وضمور العزيمة وخبو مشاعل المراقبة الدقيقة وارتخاء عُقَد الإصرار مع طول العهد .. لكن يلفت انتباهي معنى ذائع في كتب السلوك، وهو: تغيير استراتيجية المدافعة للخطرات الباعثة للولوغ في شهوات النفوس.

الإصلاح الحقيقي الذي يبدد كيد الشيطان حين يزين الشهوات يبدأ بتغيير مسار المعركة بالاشتغال على عمارة القلب بالمعاني الشريفة، ومن شأن هذه المعاني أن تزاحم ما يضادها وتطردها عن استيطان حمى القلب.

فالذي يأسى لكثرة ولوغه في الشهوات واستجابته لأدنى هاتفٍ لها، ليست معركته الرابحة في العمل دأباً على إلغاء مركّب اللذة في الشهوة، فالشهوات ستظل شهوات بما أودع الله فيها من خصائص الجذب والإثارة.

إنما انتصارات العبد الحتمية على كيد الشيطان وزخرفته للخطايا تحصل حينما يباغت الشيطان بتغيير طريقة المدافعة، فبدل النواح الدائم على ذنب معين؛ ينتقل العبد لمسار الاجتهاد في استصلاح صلاته مثلا، ومن شأن الصلاة أنها إذا صلحت؛ تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهكذا.

وقد انحنت أقلام علماء السلوك وهم يشرحون أن القلب إناء لا يقبل الفراغ بطبعه، وحيثما امتلأ بمادة ما؛ زاحمت ما عداه وطردتها عن مجاورتها.

بين طريقين

ثمة شخصيات عديدة في مدوَّنة التاريخ حينما تفتش نتاجها على عجل، وتقلب سيرتها تقليبا أولياً يستولي على ذهنك شعور لا تملك دفعه أن بينها اتصالا لا مرئيا وعناقا حميميا يختزل الزمن ويختصر المسافات المتباعدة، فبينا أنت تفتش ترجمةً لعالِم أو نتاجاً فكرياً لشخصية ما إذ تتداعى لك شخصية أخرى تلتقي معها بصورة خفيةوتتصافح أكفُّ الشخصيتين بحرارة وترحيب من وراء حجاب الأزمنة، فتلتقيان إما في التجربة والموهبة والمكانة أو بعض ذلك، وقد تمتد أحيانا نقاط الالتقاء التي تبدو لأول وهلة للناظر لتشمل طبيعة التفكير العقلي أو قصة التكوين الروحي أو لون المزاج النفسي، بل ربما وجدتَّ بين بعض هذه الشخصيات المتباعدة زمانا ومكانا التقاءً عميقا حتى في بعض المقولات والعبارات.

ومن تلك الشخصيات التاريخية التي لفت انتباهي نقاط الالتقاء بينهما من جوانب عديدة: أبو حامد الغزَّالي (٥٠٥ هـ) وعماد الدين الواسطي (٧١١ هـ)؛ فبينهما تركيبة مشتركة لافتة:

مات كلاهما عن قرابة خمسة وخمسين عاما غزيرة بالبحث والتحولات، وكلاهما تقلب بين محطات فكرية استغرقت سنوات من عمره إلى أن حط رحال تحولاته في موضع رآه صوابا، ثم التفتا إلى الوراء، وامتشقا القلم، ثم كتبا سيرتهما الذاتية، وأخذا يسردان للأجيال المقبلة حكاية الترحال.

كلاهما تحدث عن مروره بمرحلة مبكرة من الشك والقلق وفقدان التناغم مع المحيط الفكري الأول، وأشار لاستشعاره هاتفا داخليا عميقا يدعوه إلى سرعة الالتحاق بقافلة البحث والتأمل. وكلاهما تفقها على المذهب الشافعي – وإن تحول الواسطي إلى الحنبلي–، وكلاهما له عناية بالغة بتفاصيل السلوك وكتَبَ في ذلك رسائل عديدة بقلم عذب.

إبطاء وقت البوارق

من المعاني المشرقة التي احتفى بها عماد الدين الواسطي في رسائله الروحانية معنى (تأخر الفتوح الإلهية وإبطاء البوارق الرحمانية عن سالك الطريق ومتحسس النور)؛ فحينما يقرر العبد الاستقامة على الطريق المستقيم ويعزم على استصلاح حاله ويجمع الهم على الصعود في معارج الاهتداء، فلا بد أن يوطّن نفسه أن وراء نيته هذه مرحلة اختبار لصدق عزيمته، وأرض ابتلاء لحقيقة همته. وأغلب السالكين الذين تنقطع أنفاس إصرارهم ويرتخي حبل العزيمة في أيديهم، إنما استسلموا خلال منطقة الابتلاء تلك.. والمطلوب آنذاك من السالك أن يجاهد في الله حتى يهديه سبيله، وهو ما تكلم به القرآن!

العوارض

بالون الزهو

إن العراقيل الداخلية ربما كانت أشد فتكا بطالب العلم، تلك التي هي أوهام التنفّج ورؤية الذات والولع بكثرة الالتفات لتلك الخطوات اليسيرة والمنجزات الأولية في طريق التعلم، وما يستتبع ذلك عند الاستسلام لتلك الخطرات السادرة في الوهم من ذلاقة اللسان بثلب الأكابر واستحلاء الوقيعة في الأئمة واستسهال التعريض بهم ولو بحروف خجلى من وراء حجاب الفذلكات اللفظية والمناورات النفسية.

قال ابن حزم الأندلسي: "لذة العالم بعلمه!"، وهنا تحديدا تتولد القابلية لانتفاخ بالون الزهو بالتحصيل وتنبعث مشاعر الانتشاء بالتعلم، فالتواضع العلمي ليس معنى ترَفياً يُقرأ في قراطيس أدب الطلب، وإنما بالإضافة إلى كونه واجبا شرعيا وردَ التهديد المخيف الذي ترتعد له فرائص المؤمن عند وجود مقدار ذرة تناقضه في اللقب! كما في الحديث عن عبدالله بن مسعود مرفوعا: "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر .."، وهو أيضا من أعظم بواعث الاستفادة والانتفاع بالعلماء والاستزادة من المعارف؛ فالمزهوّ بعلمه المدلُّ بمعارفه قد وضع في قلبه حجازا داخليا يحول بينه وبين الانتفاع بما استهان به.

ومعرفة مقامات الأئمة وحفظ مكانتهم – حتى عند التخطئة – ليست مجرد نافلة معرفية يثاب فاعلها ولا يعاقب تاركها؛ بل إن شيخ الإسلام ابن تيمية يرى أن حفظ مقام الأئمة وترك كل ما يجر إلى ثلمهم هو أحد ركني إقامة الدين!

وفي الوقت ذاته لا ريب أن قدرًا من الزهو والفرح بالعلم والتحصيل هو أمر طبعي مركوز في طبائع النفوس البشرية؛ يتعذر نفيه وتصعب مكابرته، إنما المراد تطويق تلك المشاعر الطبعية بمعاني التواضع العلمي وذلك باستحضار جوانب القصور من جهة، ومعرفة مقامات الأكابر من جهة أخرى.

تبعية المشي على الأقدام

بينما يوشك بناء الطالب العلمي على الاكتمال من لَبِنات الشيوخ وسقوف المؤلفين، إذا بجملة تقرع سمعه مرارا؛ ألا وهي: كن مستقلا، حافظ على طريقتك الخاصة، كن أنت! .. إلخ من كلمات التنفير عن الاقتباس والمشاكلة.

وفي نظري أن قدراً صالحا من مقاصد هذه النصائح لو فُهم على وجهه؛ لكان مناسبا، لكن كثيرا من الناس يظن الاستقلال والتميز في كل حركة وسكنة أمرا مقصودا في ذاته، وهذا من شأنه أن يحرم الطالب كثيرا من الكنوز التي يمر بها في طريق الطلب، لكنه يكف يده عنها طمعا في تحقيق أكبر قدر من الاستقلال، كما نصحوه مرارا!

والذي يحق: أن مواطن القوة في كل شيء يجب أن تأخذ بها يا طالب العلم، وتقتبسها بكل ما تستطيع وتضمنها إلى كنانتك، وكل استقلال يأتي بعد هذا فهو محمود. وليتذكر السالك أن أول الإبداع محاكاة، ثم ينفرد الإنسان بعد حين بزيّه الخاص وطريقته التي جمعت المتفرق في الجميع. وأولئك الذين يرون الناس يمشون مطمئنين على أقدامهم، فيبادرون لوضع أيديهم على الأرض ليمشوا على أربع؛ طمعاً في تحصيل أكبر قدر من الاستقلال؛ يُخرجهم من "تبعية المشي على الأقدام"!

والحمد لله رب العالمين